

الفصحى والعامية

العامية اليافاوية تأملات وتساؤلات *

للأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني

مدخل:

" الفصحى والعامية هو الموضوع الذي اختاره مجمع اللغة العربية بجمهورية مصر العربية موضوعاً رئيسياً لمؤتمره السنوي الذي عقد في المدة من ٨ مارس إلى ٢٢ من مارس سنة ١٩٩٩م. وقد رغب إلى أعضائه أن يقاربه كل منهم " بتناول العامية في بلده وعلاقتها بالفصحى من حيث التأثير والتأثر " .

الموضوع حيوي قديم جديد . حيوي لأنه يتعلق باللسان الذي هو وسيلة التواصل بين بني الإنسان في قوم يجمعهم لسان واحد . وقديم لأن أجيالاً شُغلت بالنظر فيه منذ أن تباعدت "العامية" عن "الفصحى" قديماً .

وجديد لأنه مطروح اليوم في عصر ثورة الاتصال التي تعددت فيها وسائله

إذاعة وتلفزة وسينما ومسرحاً وصحافة ومطبوعات .

تداعى إلى خاطري وأنا أتأمل في الموضوع أنني أمعنت النظر فيه قبل عقدين من السنين في صيف عام ١٩٧٨ الميلادي ، وكتبت يومها قصة انعطافي لالتزام التحدث بالفصحى ، وعرضتُ أيضاً كيف يستقبل الناس ذلك . وقد شدني هذه المرة أن أتحدث عن العامية في بلدي . والحديث عن البلد أثير إلى نفس كل إنسان ، ولكنه في حال المنكوب باغتصاب بلده يأخذ بعداً آخر بما يتضمنه من استحضار ذكريات ، وما يعبر عنه من عزم على استرداد الحق وتحرير الأرض والعودة إلى الدار . وبلدي هو " يافا " إحدى بلدان فلسطين في بلاد الشام .

* ألقى هذا البحث في الجلسة السابعة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم السبت ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٤١٩هـ الموافق ١٣ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٩م .

أستشعر الحاجة بين يدي الحديث عن " عامية يافا " إلى التمهيد باستحضار دلالاتي كلمتي " الفصحى " و " العامية " بإيجاز .

العامية في المعجم الوسيط هي " لغة العامة وهي خلاف الفصحى " .
 " والعامة " خلاف " الخاصة " .
 والفصاحة هي " البيان " في المعاجم .
 واللفظ الفصيح " ما يدرك حسنه بالسمع " . وإنسان فصيح " يحسن البيان ويميز جيد الكلام من رديئه " .
 وفصح الرجل " انطلق لسانه بكلام صحيح واضح " ، والأعجمي " تكلم بالعربية فجادت لغته ولم يلحن " .
 وألحن الرجل في كلامه: " أخطأ " .
 ويجمل القول في " الفصحى " أنها تحرص على صحة اللفظ ووضوحه ، بينما تعاني " العامية " من تحريف اللفظ وغموضه . وقد عني علماء اللغة بالحديث عن " مقياس الصواب اللغوي " الذي تلتزم به الفصحى ، وعرض الدكتور عبد العزيز مطر في كتابه " لحن العامة " ما قاله عدد منهم ،

قديماً وحديثاً ، ينتهي إلى أن هذا المقياس يقوم على دعامين هما: المحافظة على سلامة اللغة العربية ، ومراعاة التطور الذي تخضع له . وهذا يعني القياس على كلام العرب القدماء وعلى القرآن الكريم الذي هو أعلى مراتب الفصاحة أنزله الله تعالى وحياً على نبيه محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - كما يعني تطبيق القواعد التي بينها علماء اللغة ، وانتهت إليها المجامع .

في ضوء هذا التحديد لمصطلحي الفصحى والعامية، يمكن أن نلاحظ أن أهم الفوارق بينهما ، هو تحريف النطق ببعض حروف اللغة، وتغييره كلياً في بعض الأحيان وإهمال إعراب أواخر الكلمات، وتغيير حركات حروف الكلمة في العامية، وهذه الفوارق تؤدي إلى فارق آخر مهم. هو وحدانية الفصحى العربية بينما تتعدد العاميات العربية بتعدد أنحاء الوطن الكبير واختلاف اللهجات. وواضح أن هذه الفوارق

تضع الفصحى في مكانة متميزة ،
وتجعلها " الأنموذج " للسان الراقى
الحريص على النطق الصحيح
للحروف ، وعلى الإعراب ، وعلى
سلامة الكلمة . ولافت أن العامية في
بلد ما تتفاوت في درجة قربها من
الفصحى بين حي وآخر . ولافت
أيضاً أن هناك تشابهاً بين العاميات
المختلفة في بلاد العرب في جوانب
تحولها عن الفصحى صوتياً وصرفاً
ونحوً ، وإن ذهب كل منها مذهبه .

" يافا " وعاميتهما:

" يافا " البلد الذي نتحدث عن
عامية أهله ، تقع على الساحل الشرقي
للبحر الأبيض المتوسط، وهي - منذ
أنشأها قبل حوالي خمسة آلاف سنة
الكنعانيون - وثيقة الصلة بمدنهم
الأخرى في فلسطين وسورية الكبرى
مثل القدس ودمشق وبيروت وعكا
وغزة وأريحا ، وبمدن مصر القريبة
منها جنوباً . وقد مكنها كونها ميناءً
بحرياً متوسطياً من التواصل مع
موانئ البحر الأبيض المتوسط

الأخرى . وعرفت منذ القديم بجذبها
وافدين جددًا للإقامة بفعل حيوية
النشاطات فيها . وعامية " اليافاويين "
العربية تعرضت لمؤثرات المكان
والزمان ، وتميزت بلهجة " يافاوية " .

حين رزئت يافا بنكبة عام
١٩٤٨م اضطر غالبية أهلها إلى
الخروج منها ولجؤوا إلى بلدان أخرى
مجاورة . وبقي فيها حوالي خمسة
آلاف تحت الاحتلال الصهيوني
الإسرائيلي ، تزايد عددهم فبلغوا بعد
نصف قرن حوالي ثلاثين ألفاً . ولا
يزال هؤلاء يتحدثون بالعامية اليافاوية
القديمة مع حدوث تطور محدود
عليها . وقد حافظ أهل يافا " اللاجئون "
على لهجتهم إلى حد ما في بيوتهم ،
ولكنهم تأثروا بلهجات البلدان التي
انتقلوا إليها . ويطيب لهم استذكار
" لهجة يافا العتيقة " في محافلهم لما
تثيره لديهم من حنين . وقد تضمنت
أمسية " يافا عابال " التي نظمها
اليافاويون المقيمون في الكويت في
ربيع عام ١٩٩٠م قبيل زلزال الخليج،

فقرات مؤثرة من الحوار " باللهجة العتيقة كما أسموها . وتم توزيع شريط الفيديو الخاص بتلك الأمسية على نطاق واسع بين اليافاويين. وقد رجع كاتب هذا الحديث إلى تلك الفقرات بين يدي كتابته . وإلى كتب عن يافا .

لتقديم فكرة عن عامية " يافا " نوجز وصف اللهجة اليافاوية العامية في نقاط مختارة .

١- هناك عدد من الحروف الصوتية يجري تحريفها وتحويلها، " فالقاف " تلفظ آ ؛ " وقادر " مثلاً تلفظ " آدر " و " قلت " ألت " و " أفريقيا " " أفريقيا " وهكذا . و " الظاء " تلفظ ضاداً غالباً . فاليافاوي يقول ضهر عن الظهر، وضهر عن وقت الظهر. وأحياناً تلفظ " ظاء " مشوهة .

كلمة " ظريف " مثلاً تلفظ الظاء فيها بدون إخراج اللسان بين الشفتين ، فيخرج حرف الظاء: أقرب إلى زاي مفخمة ثقيلة. وحرف الذال ينطق دالاً، فذنب يصبح "دنب"، وديب بدل ذئب .

وقد ينطق مشوهاً بدون إخراج اللسان فيأتي أقرب إلى الزاي. وحرف الثاء ينطق تاء فثمين تمين ، وثوم توم . وقد ينطق مشوهاً فتحول الثاء إلى سين عند بعض أبناء يافا الوافدين من أقطار مجاورة شاع فيها هذا التحريف. ومن الملاحظ أن المتعلمين من أبناء يافا كانوا يلفظون هذه الحروف صحيحة . ذلك أن أسلوب التعليم حرص على سلامة النطق ، وجرى تدريب المعلمين على الالتزام بالنطق السليم .

ولافت أن تحريف هذه الحروف شائع في لهجات عامية أخرى بأشكال أخرى .

٢- تعتمد اللهجة العامية في " يافا " إلى تحريك الحرف الثاني في الأسماء إذا كان ساكناً فبحر تلفظ بحر. وقبر تلفظ " قبر " أو أبر تحديداً . وشمس تلفظ " شمس " وهكذا. ولافت هنا أن عدم الالتزام بلفظ الحركة في آخر حرف دعا إلى نقل الحركة للحرف الثاني الساكن . وتحريك عين الفعل شائع

حين يتصل به ضمير المتكلم مثل
أَكَلْتُ و شَرِبْتُ و ضَرَبْتُ و شَغَبْتُ
بمعنى تسَلَقْتُ .

٣- تقول العامة إجا زيد ، وإجَتْ
مريم ؛ بدلاً من جاء زيدٌ وجاءت
مريمٌ. فالهمزة في فعل جاء انتقلت من
آخر الكلمة إلى أولها فصارت مثل
أتى ولكن مع الكسر بدل الفتح.
و"شيء" في عامية يافا تنطق إشي .
"ولي" تنطق إلي .

٤- يقول اليافاوي منادياً أخاه "يا
خوي"، وأباه "يابا" ، وأمه "يامّا"
مُشدداً الميم ومفخماً، وأخته "ياختي".
ويقول مشيراً إلى زوجته "مرّتي"
بفتح الميم والراء التوالى . وتقول
اليافاوية "جوزي" بدلاً من زوجي .

٥- كلمة "عمّال" لها دور خاص في
العامية اليافاوية ، وهي تدل على
استمرار الفعل وتأتي قبله . فيقال
عمال ياكل وعمال يشرب وعمال
يلبس . وأحياناً للفعل حرف الباء في
أوله ، فيقال عمال بياكل . وأحياناً
يجرى اختصار عمال إلى عمّ، فيقال

عمّ ياكل أو عم بياكل (عميياكل) ،
وأنا "عمبشرب" ، وهي "عمتغسل"
أو عمبتغسل " ، وهُمّ "عمبيلعبوا"،
وأنت "عمبتدّرس" إلى آخره.

أحياناً أخرى يكتفى بالباء تضاف إلى
أول الفعل لتفيد الاستمرار ، فيقال
جواباً عن سؤال ماذا تفعل "بذّرس"
و "بشّغل" . ويقال عن سمكٍ يتحرك
"بلعبط"

٦- تتضمن اللهجة العامية اليافاوية
أصواتاً لها دلالات ليس فيها حروف ،
مثل صوت "الشخّرة" وهو يخرج
من الحلق ويشبه نطق حرف الخاء ،
ويدل على الاحتجاج الشديد
والاعتراض القوي . وهناك صوت
يخرج من أول الفم بتحريك اللسان
فيه، يجمع بين الطاء والسين في
اللفظ، ويستخدم للتعبير عن الأسف إذا
وقع فعل مؤسف، وعن التجذير تحسباً
من وقوعه. وهو يقابل معنى "لّة لّة".
وصوت "س" "السين الساكنة" - يشير
إلى التزام الصمت. وهو اختصار
الكلمة "هُسّ". وقد يقول واحدٌ لآخر:

"س" .. ولا كلمة "وتقول الأم مشيرة لطفلها الرضيع وهي تنبه أولادها إلى أنه نائم "س" واضعة سبابتها على شفثيها شاقولياً . وصوت الشجرة بين هذه الأصوات غير مقبول بين الآداب العامة ، ولذا ينأى المؤدبون عنه . وقد يغفرون لصاحبه إذا بلغ السيل "الزبد" ، وفاض به الكيل من أمر ما ، "فشخر شجرة" . والمرأة اليافاوية تقول "يوه" وعلى الأدق "يُة" للدلالة على الاحتجاج أو الاستغراب .

٧- في العامية اليافاوية كلمات أعجمية جرى تعريبها بلفظها الأعجمي ، وإن تغير النطق بها شيئاً ما . وهي دخلت اللغة بفعل "احتكاك حضاري" . وهذا شأن أسماء أشياء جرى استيرادها . والأشياء المادية سرعان ما تنقل من حضارة إلى أخرى بسهولة وبلا حرج ، كما يلاحظ علماء تاريخ الحضارة ، على عكس الأفكار والعقائد . وكثيرة هي الأشياء المادية التي نقلها غربيون من حضارتها بأسمائها . واليافاوي يقول "ساكو"

عن السترة ، وهي كلمة إيطالية ، كما يقول "جاكيت" . ويقول "باص" عن حافلة الركاب ، وهي كلمة إنجليزية ، لأن استخدام "الباص" عم في عهد الاستعمار البريطاني . ويقول "ترين" عن القطار ، وهذه كلمة إنجليزية أيضاً ، و"موتور" ، و"راديو" ؛ كما يقول "كوبانية" عن الشركة محرفاً "كومباني" . ويقول "بوليس" محولاً الألف إلى باء وماداً الياء . وقد ألف المتعلمون استخدام ما تمت ترجمته وشاع قطار ، ومحرك ، ومذباع ، وشركة ، وشرطة .

٨- في العامية اليافاوية ميل قوي لمد آخر حروف الكلمة وحرف العلة الذي يسبقه . فاليافاوي يقول "تعال" يا "خووي" ، و"خلييل" .

٩- "بدي" كلمة مهمة في العامية اليافاوية . وهي تعني "أريد" أو "أبغي" ، وأصلها "بودي" . وهي شائعة في أنحاء أخرى من بلاد الشام ، ولكن مع فتح الباء بدل كسرها في لبنان . واختصارها يماثل اختصار "أبغي"

إلى " أبي " في الخليج و " تبغي " إلى
" نبي " في ليبيا . وهي تصرف مع
الضمائر " بدو " بذها ، وبذهم ، وبذنا ،
بذكم ، بذك .

راح أو على الألق " رَح " كلمة أخرى
مهمة تفيد المستقبل : " رَح أروح بعد
شوي لدارنا " . " رَح اشترى بكره الكتاب "
١٠ - العامية اليافاوية حافلة بكلمات
فصيحة تستخدم بمعناها الدقيقة .
فاليافاوي يقول " كز " على أسنانه
ويقول " كزم " شافة أي شقفة ، بمعنى
كسر قطعة بفمه . وهكذا

١١ - يقول اليافاوي " ولّة " و " ولّة "
للذكر والأنثى على التوالي . وهما
مقابل " ولو " و " ولي " (ياء مائلة)
في الشام و " ولا " و " ولي " في
بيروت . " وولّه " شائعة في مصر .
ويحولها اليافاوي إلى " ولّك " ويقبول
" ولّك " للأنثى " وولّكم " للجمع

١٢ - " مش " تستخدم للنفي في
العامية اليافاوية . " مش عايز " أو
" مش عاوز " و " مش رايح "
و " مش عارف " و " ومش نافع "

والعامية اليافاوية تلتقى في ألفاظ كثيرة
مع العاميات الأخرى و " بدّي " بمعنى
أريد أو أبغي تصبح " بدّيش " للنفي .
ويجري تصرّفها " بدكاش " إنّت ،
و " بدّوش " هو ، وبذهاش " هي ،
و " بدناش " نحن ، و " بدكمش " أنتم .
والكلمة ونفيها تستعملان في صيغة
الاستفهام بذك ؟ بدكاش ؟ وبديش ؛
إنّت . والعامية النابلسية تستخدم
" بدكيش " للذكر والأنثى . وإيش بذك ؟
تعني " أي شيء بُودك " ؟

" وبلاش " كلمة شائعة في اليافاوية .
وأصلها " بلا شيء " . ومن الأمثلة
" بلاش لتّ وعجن " .

إن التأمل في النقاط الاثنتي عشرة
التي حاولنا أن نصف بها " العامية
اليافاوية " يؤكد ما سبق أن ذكرناه من
أن في العامية تحريف النطق ببعض
الحروف ، وتغييره كلياً في بعض
الأحيان ، وإهمال إعراب أواخر
الكلمات ، الأمر الذي يؤدي غالباً إلى
تغيير حركات حروف الكلمة . فإذا
استحضرنا مختلف " العاميات "

لتقريب العاميات العربية منها ؟
تساؤلات وتأملات:
لماذا تتعدد اللهجات في اللسان
الواحد؟

بحوث كثيرة جرت حول نشأة
اللغة ، منذ القديم ، ليس هذا المجال
مجال عرض عصارته . ولكن نشير
إليها بين يدي محاولة الإجابة عن هذا
السؤال . ونلاحظ ابتداءً أن جميع
الأسنة في الاجتماع الإنساني تشهد
تعدد لهجات فيها ، كما أنها تشهد
حدوث تطور مستمر في كل لسان
وفي كل لهجة .

إن الرؤية المؤمنة للإنسان
وللاجماع الإنساني تقف أيام ما جاء
به الوحي الإلهي في سورة الروم عن
كون اختلاف الأسنة والألوان من
آيات الله سبحانه . وهذا الاختلاف
متصل باختلاف المكان . ويبدو أن في
الإنسان نزوعاً فطرياً إلى إصدار
أصوات تعبر عنه أسوة بما يسمعه
ممن حوله منذ طفولته الأولى . نرى
هذا في الرضيع وقد قارب الحول . ولا

العربية ، ألا يمكن أن نجد النقاط
الاثنتي عشرة هذه واردة بشأن كل
منها ، مع اختلاف في شكل التحريف
وتغيير حركات حروف الكلمة ! الأمر
الذي يبرز تشابهاً في جوانب تحول
هذه العاميات عن الفصحى وإن ذهب
كل منها مذهباً .

أسئلة تبرز عند هذا الحد من الحديث
تتعلق بتطور اللغات بعامية . ما تفسير
تعدد اللهجات في اللسان الواحد؟ متى
بدأ هذا التعدد؟ لماذا يحدث هذا التحول
في اللغة؟ كيف يتم التوافق في "الأمة"
على فصاحة اللسان واللغة الفصيحة
"الفصحى" ويتم من ثم تحديد مقياس
الصواب اللغوي؟ وفيما يتعلق باللسان
العربي بخاصة؛ لماذا لم يؤد التحول
في "اللغة الأصل" إلى ظهور لغات
جديدة ، منذ ظهور الإسلام ، كما
حدث مع لغات أخرى مثل اللاتينية
في أوروبا؟ وهل من المتوقع أن تبقى
عاميات عربية إلى جوار الفصحى؟
وإذا كانت الفصحى هي "نموذج"
اللسان العربي الراقى فكيف نعمل

يلبث أن يكتسب لغة قومه . ومع انتشار الأقوام في أرض الله الواسعة تبللت الألسنة وتفرقت . والبلبل في القاموس المحيط " اختلاط الألسنة " بينما البلل بالكسر " جريان اللسان وفصاحته ووقوعه على مواقع الحروف واستمراره على النطق وسلامته " وهي أيضا الخير والرزق .
وكان الفصاحة خير ورزق .

متى بدأ هذا التعدد ؟ وما أسبابه ؟

تعدُّ اللهجات في اللسان الواحد إذا قديم قدم السياحة في الأرض والانتشار في ربوعها . ويبدو أن لما تحفل به الطبيعة من أصوات ، من هدير أمواج، وخرير مياه، وصفير رياح، وشدو أطياف، وأصوات حيوانات، لكل منها اسمه وأثره في تكوين اللغة، كما يبدو أن احتكاك لسان بلسان آخر يؤدي إلى تبادل التأثير بينهما وفقا لسنن تفاعل الحضارات التي شرحها علماء التاريخ الحضاري .

وهذا عامل آخر من عوامل التحول في اللغة وتطورها . وقد لفت

نظر كاتب هذا الحديث ما سمعه عن لهجة قرويين من منطقة بلده "يافا" هاجروا إلى الساحل الشرقي في الولايات المتحدة بعد نكبة وطنهم ، فأدخلوا على عاميتهم تطويرا واضحا تعربت فيه كلمات إنجليزية كثيرة وجرى تصريفها، فكانها عامية جديدة. وبين يدي أخذ فكرة عنها يتداعى إلى خاطر مثل على كلمة أعجمية جرى تعريبها، كلمة " فنش " التي شاعت في منطقة الخليج للدلالة على " إنهاء الخدمة " بينما " فنش " في اللسان العربي تعني: استرخى، كما يقول صاحب المحيط . وفي تلك اللهجة تقول الأم مستفسرة من ابنها الذي وصل من عمله " بركت الكار يما ؟ " والكار Car هي السيارة ، والفعل " برك " هو من Park وقد تحولت P إلى باء ، و " يما " هو نداء الأم لابنها والابن لأمه في اللهجة اليافاوية ، وأصلها " يا أماه " . ويقول الابن لأبيه " إجا البوستمان وهادي البيل " وقد استخدم كلمتين إنجليزييتين مقابل ساعي البريد

وكشف الحساب ، وجرى تمديد الثانية
تبعاً للهجة فلم يقل " بل " . وأدخل "أل"
التعريف في الحالتين. وفي تلك اللهجة
توصف سيارة بأنها " مكندشة "
و " مُهَيَّته " إشارة إلى أنها مزودة
بالتكييف Condition وبالتدفئة Heat.
وهي سيارة " فليشن " تحريف
Fulloption . ويُقال " سيَّزت " من
Size أى قِست . وهكذا .

قد يكون هذا المثل صارخاً في
إبراز استيعاب العامية لكلمات لسان
آخر ، والمدى الذي يمكن الذهاب إليه
في هذا الاستيعاب ، ولكنه يدعو إلى
الخطر أسئلة أخرى أراها في وطننا
الكبير ، تُعَرَّب فيها أسماء الأدوات
وأحياناً الأفعال . ومن اللافت في
جميع الأمثلة أن هناك ثوابت في
اللهجة تبقى قائمة تُشير إلى أصولها .
وهذا ما يفسر احتفاظ اللهجات العامية
في أقطارنا العربية بلهجات العرب
القدامى في جزيرتهم العربية .
ولا يزال بعض أبناء فلسطين يلفظون
القاف كافاً ، وبعض آخر يحوّل كاف

آخر الكلمة إلى شين ، وثالث يلفظ
التاء بقرنها بالسين " تس " ، وجميعها
لهجات عربية قديمة تحدثت عنها كتب
الأدب وقَدَّمها أحمد تيمور في رسالة
له حول الموضوع .

مجل القول: إن تعدد اللهجات
في اللسان الواحد قديم ، وإن من
أسباب حدوثه أثر المكان واحتكاك
الحضارات ؛ وهي ظاهرة مستمرة ،
وفي استمرارها تحافظ اللهجة على
ثوابت فيها تميّزها . ويكون انتشارها
في دائرة بعينها تُنسبُ إليها بلدٌ أو
قطرٌ أو قومٌ أو تجمعٌ . وتقوم هذه
اللهجة إلى جانب اللسان الفصيح ،
فتكون هي العامية ويكون هو
" الفصحى " . ويبرز السؤال: كيف يتم
التوافق في " الأمة " على فصاحة
اللسان " والفصحى " ، التي تصبح
نموذج الصواب اللغوي ؟

ظاهرة التوافق هذه تعرفها كل
الأمم في الاجتماع الإنساني . ويتم هذا
التوافق من خلال تفاعل اجتماعي
يُعطي من شأن الفصاحة، وحسن البيان،

وجيد الكلام، وسلامة النطق للحروف. ويعبر عن ذلك كله الأدب شعراً ونثراً والدين وصايا وأوامر ومعتقدات. ويشتهر فيه أهل العلم والشعراء والخطباء. ويحفظ تراث الأمة ذلك في ذاكرتها التاريخية والأدبية. ولكل أمة تراثها الشفهي والمكتوب. وقد حفظ أجدادنا في مصر عقائدهم في متون الأهرام وأدبهم مكتوباً، وفي بلاد ما بين الرافدين كانت ملحمة جلجاميش. وفي جزيرة العرب تداول الناس في الأسواق أجمل الكلام وأعلوا من شأن المعلقة الشعرية. وفي اليونان كانت الإلياذة والأوديسة والشاعر هوميروس ومؤلفو المسرح، وهكذا وصولاً إلى شكسبير في بريطانيا وأقرانه في بلاد أخرى، ومن ثم إلى عصرنا. ويصبح هذا التراث محور الثبات في اللسان والحافظ له من بلوغ العامية في تحولها درجة التغير وظهور لغة جديدة.

ماذا عن التوافق على الفصحى في اللسان العربي؟ وكيف حافظت

الفصحى العربية على وحدة اللغة؟ اللسان العربي قديم — كما يقول لنا علماء اللغات — وقد تعددت فيه لهجات القبائل، وبرزت إلى جواره في المنطقة المحاذية لجزيرة العرب السنة أخرى قديمة مثل الأكادية في بلاد ما بين الرافدين والكنعانية الفينيقية على الساحل السوري والعمورية والأرامية في بلاد الشام والمصرية القديمة في مصر. ويلاحظ عدد من العلماء منهم بروكلمان أن هذه اللغات تعود إلى لغة أم واحدة أقرب ما تكون إلى اللحن العربي الفصحى. وتشمل شجرة هذه اللغات العبرية والحبشية. وكاتب هذه السطور يستشعر الحاجة إلى سماع آراء علمائنا الضالعين في دراسة هذه اللغات في العلاقة القائمة بينها، ومن ثم في كيفية تفرقها.

لقد ميّز العرب منذ القديم في جزيرتهم وأطرافها بين لغة فصيحة جميلة راقية وأخرى لا ترقى لها. ويشير عبد العزيز مطر في حديثه عن المقياس الصوابي عند اللغويين القدماء

إلى ما جاء في المزهر نقلاً عن الفارابي والسيوطي أن الذين نقلت عنهم اللغة العربية من قبائل العرب قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، "ولم يؤخذ عن حضري قط ولا عن سكان البراري". وكان سيبويه يقول: "سمعنا العرب الموثوق بهم، وسمعنا فصحاء العرب"، ومثله ابن جني والأصمعي وغيرهم من علماء اللغة. ونستطيع أن نرى أمثلة على الفصحى قبل الإسلام في شعر المعلقات وأمثاله وما حفظه الناس من حكم الحكماء وخطب الخطباء.

الجديد الذي مثل نقطة تحول في اعتماد معيار الفصاحة والحفاظ على الفصحى كان حين أنزل الله سبحانه الذي علم آدم الأسماء كلها بعد أن خلقه من طين، القرآن الكريم على خاتم أنبيائه ورسله محمد بن عبد الله كتاباً عربياً "بلسان عربي مبين" فقد اعتمده العرب منذ ذلك الحين إلى مراتب الفصاحة. وكانت قريش قبيلة

الرسول صلى الله عليه وسلم مشهورة بين القبائل بفصاحتها. وواضح أن اعتناق العرب للإسلام جعلهم يتمسكون بالحفاظ على سلامة لغة القرآن الكريم. وأضحى إتقانها فرضاً دينياً. وهكذا توالى العناية باللسان العربي قرناً بعد قرن، فأمكن الفصحى أن تحافظ على وحدة اللغة لاعتبارها الأنموذج، وسقط تعدد العاميات العربية التي كثرت بعد الفتوح. وقد نقل القلقشندي في صبح الأعشى في معرض حديثه عن المعرفة بالعربية قول عمر بن الخطاب "تعلموا اللحن (أي اللغة) والفرائض فإنها من دينكم".

وقال في فضل العربية "ولا خفاء أنها أمتن اللغات وأوضحها بياناً، وأذلقتها لساناً، وأمدّها رواقاً، وأعذبها مذاقاً، ومن ثم اختارها الله تعالى لأشرف رسله، وخاتم أنبيائه، وخيرته من خلقه، وصفوته من بريته، وجعلها لغة أهل سمائه وسكان جنته، وأنزل بها كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه". ولافت في

قوله أثر البعد العقيدي في إعلاء شأن
اللسان العربي.

هكذا تأكدت مكانة " الفصحى "
التي يمثل القرآن الكريم أعلى مراتبها،
وقد نزل بلحن قريش . وأضحت
" الفصحى " هي المعتمدة في الكتابة
الرسمية والكتابة الراقية. "فالكاتب لابد
له من حفظ كتاب الله تعالى " عند
القلقشندي " حتى لا يزال مصوراً في
فكره، دائراً على لسانه، ممثلاً في
قلبه، ليكون ذاكرة له في كلامه ، وكل
ما يرد عليه من الوقائع التي يحتاج
إلى الاستشهاد به فيها ، ويفتقر إلى
قيام قواطع الأدلة عليها . " وقد قال
الرشيد يوماً لبنيه: " ما ضرَّ أحدكم لو
تعلم من العربية ما يصلح به لسانه .
أيسرَّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان
عبده وأمتة ؟ " . وحين تم جمع
الحديث الشريف الصحيح أخذ الحديث
النَّبوي مكانة تلي مكانة القرآن الكريم
في الاستشهاد به دلالة على فصيح
الكلام. على مدى ثلاثة عشر قرناً من
العُمران الحضاري العربي الإسلامي،

استمرت ظاهرة " تعايش " الفصحى
والعامية في تفاهم وتكامل . فأما
التفاهم فيتجلى في إدراك حقيقة
وجودهما معاً جنباً إلى جنب في
الاجتماع الإنساني ، والتسليم بمكانة
الفصحى العالية ومرتبها الرفيعة .
وأما التكامل فيتجلى في أداء كل منهما
دوره في ضوء حقيقة أن الاجتماع
الإنساني منذ كان فيه عامة وخاصة،
يشهد نزوعاً عند أفرادهِ للارتقاء ببذل
الجهد لنيل العلم والاستزادة منه .
فالعلو يقتضي مجاهدة. ورحم الله أبا
الطيب القائل:

" ولو لم يعمل إلا ذو مقام ."

وقد عبر عن هذا المعنى
الشاعر السكندري اليوناني كافافيس
في قصيدته " أولى درجات السلم "
التي يحكى فيها كيف جاء الشاعر
الشاب افيمينوس إلى أستاذه
ثيوكريتوس يشكو من أن سنتين مرتا
وهو يكتب ولم يتوصل إلا إلى قصيدة
غزلية " واحسرتاه ،
أرى سلم الشعر عالياً .

عاليًا جدًا أراه .

ومن هذا الدرج الذي أقف عنده هنا لن أرقى ، أنا المسكين أبدًا " . ويرد عليه ثيوكريتوس بأن كلامه تجديف غير لائق " وإن كنت عند أولى الدرجات فيجدر بك أن تفخر بذلك وتسعد . فليس بالقليل أنك وصلت إلى هنا . والذي أنجزت هو لك شرف كبير . وهذا الدرج الأول عن عامة الناس يبعد كثيرًا . وكى تطأ قدمك ذاك الدرج يجب أن تكون بحق في مدينة الفكر مواطنًا " . ومن اللافت في الاجتماع الإنساني أن العامة في كل الأمم يعلون من شأن هذا الارتقاء ويعبرون عن ذلك باحترامهم الفصحى وتجاوبهم معها وإعجابهم بها . وقد ألمحتُ إلى ذلك فيما كتبتُه عن " كيف يستقبل الناس الفصحى ؟ " . " في " قصتي مع الفصحى " . ويتداعى إلى الخاطر تناول برنارد شو موضوع لغة العامة الخاصة في مسرحيته بيجماليون التي اقتبستها السينما في فيلم " سيدتي الجميلة " .

تجدر الإشارة هنا إلى أن

للكلام الفصيح درجاته التي يتوافق عليها أهل العلم والأدب في كل زمان، مضمونًا وأسلوبًا وبلاغةً ، ليكون الأفصح منه هو " الفصحى " . ويمكننا أن نلاحظ في الموّال الذي أورده ابن خلدون في مقدمته مدى قرب لغته من الفصحى:

طَرَقْتُ باب الخبا قالت مَنْ الطارقُ
فَقُلْتُ مفتونٌ، لا ناهب ولا سارقُ
تبَسَّمت، لاح لي من ثغرها بارق
رَجَعْتُ حيرانُ، في بحرِ الغرام غارقُ
وشبيه بذلك زجل عامي رفيع عرفته
أمتنا قديمًا وحديثًا ، وقد سمعنا منه في
عصرنا أمثلة يوقف أمامها قال بعضها
شعراء أجادوا قول الشعر بالفصحى ،
ومنها روائع لأمير الشعراء أحمد
شوقي تغنى بها محمد عبد الوهاب
مثل " النيل نجاشي " . وأتقن بعضها
شعراء العامية من أمثال بيرم التونسي
وفؤاد حداد والزُّغبي والأبنودي ؛
واشتهرت حين تغنى بها مطربون
مجيدون .

ويثور هنا تساؤل

إذا أردنا للتفاهم والتكامل بين
الفصحى والعامية أن يتعززا انطلاقاً
من أن للكلام درجات أعلاها
الفصحى، ألا ينبغي للنقد الأدبي أن
يعنى بتصنيف العامية وإبراز الأدب
العامي الجيد بهدف الارتقاء به درجة
إلى أن يبلغ الدرجة العليا فيصل إلى
الفصحى؟

بعض الحريصين على سلامة اللسان
العربي يرون ذلك ، وقد مارسوه في
حدود ضيقة، ومنهم الناقد علي
الراعي . ولكن البعض من الحريصين
على سلامة اللسان العربي يخشى من
ذلك حتى وإن كان الهدف الارتقاء
بالعامية . ومردّ هذه الخشية أن جديداً
طراً في عصرنا أخلّ في التعايش
الإيجابي بين العامية والفصحى الذي
استمر ثلاثة عشر قرناً . وذلك منذ أن
رزئت أمتنا العربية ودائرتها
الحضارية الإسلامية بالغزو
الاستعماري الغربي الذي استهدف
تجزئة الوطن الكبير وتفكيك

مجتمعاتنا، فاستهدف " الفصحى "
الجامعة بعدائه، وحاول فرض "العامية"
وصولاً إلى تكوين التفرقة ، وبروز
لغات جديدة .

على الرغم من أن قوى الهيمنة
الاستعمارية تابعت حملاتها على
اللسان العربي بمزاعم عجزه ووظفت
في ذلك من نجحت في استلاب هويتهم
العربية من أبناء الأمة في معاهدها،
إلا أن قوى النهوض في الأمة الذائدة
عن لسانها والتمسكة بهويتها نجحت
في إفشال هذه الحملات إلى حدّ ليس
بالقليل . وقد دخلت معركتها للدفاع
عن اللسان العربي مرحلة جديدة اليوم
في ظل هجمة قوى الهيمنة الغربية
" بالعولمة " وتوظيفها للتحكم في
الإعلام والتدخل في المناهج التربوية
لفرض مخططاتها التي منها تعميم
عامية هابطة والقضاء على الفصحى
التي نزل بها القرآن الكريم . والحق
أنه إذا كان مخطط العولمة قد رمز
إلى سيطرته " بأكل الهامبورجر ،
وشرب الكولا ، ولبس الجينز ،

ورقص الروك وسماع CNN ، فإنه يمكن أن يضـاف " والرطـن بلسان عامي هابط تغلغل فيه الدخيل ."

كيف السبيل لصدّ هجمة العولمة هذه على اللسان العربي، وتحقيق انتصار حاسم عليها يحفظ للأمة لسانها وهويتها وثقافتها وحرّيتها؟

لقد عني مجمع اللغة العربية بمصر ومعه المجمع الأخرى الشقيقة في وطننا العربي بالإجابة الفكرية عن هذا السؤال ، فبلورت توصيات من خلال دراسات ، وقرنت الفكر بالفعل في حدود استطاعتها. وتركزت هذه التوصيات على العناية باللسان العربي في مناهج التربية والتعليم وفي وسائل الإعلام. وهي تطالب باتخاذ القرار السياسي الذي يتبنى هذه التوصيات ويضعها موضع التنفيذ "لأن الله يزرع بالسلطان ما لا يزرع بالقرآن".

وقد عرف وطننا العربي أكثر من مثل مُشرق على ذلك في عدة أقطار عربية

تضمن تعريب العلوم والحفاظ على اللسان العربي من الدخيل والعودة إليه من الاغتراب في أسر لسان آخر أعجمي .

وبعدُ . فإنّ من المتوقع استمرار وجود العامية والفصحى جنباً إلى جنب في وطننا الكبير مستقبلاً ، وكذلك مُضيّ قوى الهيمنة الطاغوتية في محاربة الفصحى في سعيها لغرض تسلط العولمة . ومن المؤكّد في الوقت نفسه أن تشهد الأمة متابعة أعلامها العمل للحفاظ على اللسان العربي وإصلاح ألسنة الناشئة والارتقاء بالعامية لتقترب من الفصحى . فذلك هو التعبير عن الصحو واليقظة والنهضة وعن الاستجابة الصحيحة لتحديّ " رطانة العولمة " وما يتصل بها من تحديات محاولة التسلط . وإن لهؤلاء الأعلام ، قادةً سياسيين وعلماء وأدباء ومُربين ، دوراً خاصاً في تقديم الأنموذج للسان العربي الفصيح الراقى ليكونوا الأسوة لقومهم وسوف يبقى نصب أعين

_____ للدكتور أحمد صدقي الدجاني _____

اليافاويين ومعهم كل أبناء العروبة
تحرير يافا العربية وفلسطين بعامة
كي لا يكون اللسان العربي غريباً
فيها. واسمحوا لي أن أسوق إلى
حضراتكم قصة مع الفصحى والناس
من كتاب "رحلات ولحظات ممتدة":

قصة مع الفصحى والناس

من كتاب " رحلات ولحظات ممتدة "

لم أنشأ في بيت يحرص على الحديث بالفصحى . فقد كانت لغة المخاطبة اليومية بين أفراد أسرتي هي " لهجة " أهالي يافا أو لأقل على التحديد لهجة المثقفين من أهالي يافا . لأنني مازلت أذكر كيف لاحظت ونحن أطفال نمرح على الشاطئ اختلاف لهجتنا عن لهجة " البحارة " ولذ لي ولأخوي وأقراننا أن نقلد تلك اللهجة . ولا أنكر أن أساتذتي في المرحلة الابتدائية بيافا حرصوا على أن يتمسك تلاميذهم بالفصحى في الحديث اليومي ، وإن كان بعضهم قد حَبَّبَ إليَّ اللسان العربي بنطقه الجميل له ، ولم يطرأ تغير يذكر على صعيدي البيت أو المدرسة في الموقف من الفصحى حين فرضت علينا " النكبة " عام ١٩٤٨م النزوح عن فلسطين إلى لبنان فسورية . كنت آنذاك في الثانية

مضت علي أعوام كثيرة منذ أن التزمت الحديث باللغة الفصحى . أكثر من عقدين من السنين منذ أن بدأت المحاولة . وقد وعدت أن أقص حديث قصتي مع الفصحى لأجيب أولئك الذين يسألونني حين تلفت أنظارهم لغتي سؤالي لماذا ؟ ومتى ؟ بحثا عن السبب وعن أصل الحكاية . كذلك لأبين من واقع تجربتي كيف يستقبل الناس — على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم — الحديث بالفصحى ، وإلى أي مدى ينسجمون معه . وكيف يكون موقف المتحدث وهو يُصَرِّفُ أمور حياته اليومية ، وإلى أي مدى يعبر عن نفسه أمام الآخرين ويتواصل معهم . وفي ذهني وأنا أطرح ذلك كله النظر في مستقبل الفصحى بين الناطقين بالعربية .

عشرة من عمري وقد استقر بي المقام في ثانوية البنين باللاذقية . والتغير الذي طرأ هو أن اللهجة التي بتُ أسمعها في المدرسة أو في الحي أصبحت لهجة أهل اللاذقية وهي مختلفة إلى حد ما عن لهجة أهل يافا . وما زلت أذكر كيف انتبه الصبي — الذي هو أنا — لهذا الاختلاف ولاحظ ما ينشأ عنه من مفارقات طريفة . ومن الأمثلة التي تخطر على بالي الآن كلمة " لِسَّه " التي تشيع بين أهالي وسط فلسطين وجنوبيها وكلمة " إِسَّه " التي تشيع في سوريا ولبنان وشمال فلسطين ولكل منهما مدلول مختلف وقد كنا نقول " فلان خزى فلانا " أو " كسفه " فإذا بنا نسمع كلمة " بخعه وبرخه " .

وكان هذا الانتباه بداية اهتمام بمعاني الألفاظ ونشأتها وتطورها شدّني فيما بعد إلى دراسة فقه اللغة وفلسفتها .

ولم يطرأ على الصبي جديد يذكر بشأن إقباله على دراسة اللغة

العربية . ولكنه انتبه إلى جمالها وهو يدرس الأدب العربي على يدي أستاذ قدير ويتابعه في مراحل المتتالية منذ العصر الجاهلي إلى عصرنا . وبقي هذا الإحساس بجمالها مطبوعاً في نفسه . ومع ذلك فقد اختار أن يدخل القسم العلمي بعد أن نال شهادة الدراسة المتوسطة لتفوقه الملحوظ في دراسة الرياضيات .

يمكن أن نذكر جديداً طرأ على الصبي كان له أثر بشكل أو بآخر فيما بعد على تعلّقه بالفصحى . ذلك هو إقباله على القراءة في تلك المرحلة . وكان يلذُّ له أن يتحدث عما يقرأ مع أصدقائه . وبدأت حصيلته من الكلمات تزداد . وشرع يستخدم هذه الحصيلة التي اكتسبها مكتوبة وليس سماعاً . وقد ظهرت آثار طريقة اكتسابه للكلمات في كثرة الأخطاء التي يقع فيها عند لفظها . ولم يتغلب على هذه الأخطاء إلا حين تعود اللجوء إلى السماع والاستتجاد بالمعاجم، الأمر الذي أكّد له تلك الحقيقة الهامة وهي

أسرته المادية عليه أن يعمل مدرسا ليتيح لأخيه الأكبر أن يتابع دراسته الجامعية ، بعد أن أدى واجبه في الإنفاق على الأسرة ثلاث سنوات .

ولما كان عمر الصبي دون السن التي يشترطها تعيينه في " الحكومة " ، فقد اتجه إلى العمل في مدرسة خاصة " إعدادية " افتتحت حديثا في ناحية نائية. وهكذا تعاقد على تدريس الرياضيات والعلوم في ثانوية " الشريف الرضى " بالقرداحة من أعمال قضاء جبلة بجبل العلويين .

أقبل المدرس الصغير على عمله الجديد. وما زلت أنكر كيف استشعر أهمية إتقان التعبير عن نفسه. ووجد نفسه أمام سؤال برز أمامه ولا بد له من إجابة. السؤال هو: بأية لهجة يلقي دروسه ويتعامل مع طلابه ؟ كان لا يزال يتحدث في بيته باللهجة اليافية، وكان قد بدأ يتقن الحديث بلهجة أهل مدينة اللاذقية ، وهو يُدرس طلابا يتحدثون بلهجة ثالثة . وما أسرع ما تعود على سماع اللهجة

أن اللغة تكتسب سماعا . ولا بد أن تؤخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار في طريقة تدريس اللغة العربية للأجيال الصاعدة .

ويمكن أن نذكر أيضا أن الصبي بعد أن نال شهادة الدراسة المتوسطة بدأ يعاون أخاه الأكبر في إعطاء دروس خصوصية في الرياضيات . وكان أخوه قد عمل مدرسا وهو في السادسة عشرة من عمره ليسهم في إعالة أسرته . وقد شعر الصبي بأهمية إتقان التعبير عن نفسه وهو يلقي هذه الدروس .

ويمكن أن نذكر أخيرا أن الصبي أحس من نفسه في تلك الفترة إقبالا على الدين وانعطافا إلى الدين ، فبدأ يصلي الجمعة ويقرأ القرآن ويدخل في محاورات مع أقرانه حول الدين والحياة .

التغير الجذري الذي طرأ على حياة الصبي وقع حين نال شهادة الدراسة الثانوية وهو في الخامسة عشرة من عمره إذ فرضت ظروف

الجديدة . ولكنه لم يحسن التحدث بها .
ولاحظ أن لهجته غريبة على سماع
طلابه ، كما أن محاولته التحدث
بلهجتهم غريب على سمعه هو .
وهكذا لخص الموقف بينه وبين نفسه
" إن ألقيت دروسي بلهجتي فتحت
مجالا لتعليقاتهم وربما ضحكوا على
بعض تعبيراتي ، وإن ألقيتها بلهجتهم
قد يضحكون لعدم إتقاني ، ويقينا
سأضحك أنا على نفسي " وجاءت
إجابته على السؤال تلقائية بأن انعطف
إلى الحديث باللغة الفصحى .. لغة
القرآن والأدب والكتب .

ارتاح المدرس الصغير إلى
محاولته التعبير عن نفسه بالفصحى ،
وانتبه في تلك السنة إلى أهمية
ملاحظة قواعد اللغة عند إلقاء
الدروس . وقد حدث مرة أن كتب
على السبورة أسئلة اختبار للطلاب في
مادة الهندسة . وكان من بين الأسئلة
سؤال نصه " عرّف الزاويتان
المتبادلتان " . ولم ينبهه أحد من
طلابه إلى الخطأ النحوي الذي وقع

فيه ، ولكن مدير المدرسة مرّ عرضا
به فلاحظه وفي وقت لاحق راجعه
فيه بمحبة ومودة . ومع أن صاحبنا
ساق الحجة التي كان يسمعها بين
طلاب القسم العلمي بأنه مدرس علوم
لا شأن له بقواعد اللغة العربية ، إلا
أنه في أعماقه لم يكن مقتنعا بها .
وشعر بضرورة استرجاع تلك القواعد
والحرص على التعبير بلغة سليمة .
ومن خلال مراجعته لنفسه لم يرَ
وجود أي تناقض بين إتقانه لغته
العربية وبين كونه مدرس رياضيات
وعلوم . وهكذا بدأ يهتم بملاحظة
النحو في حديثه محاولا تطبيق ما
تعلمه من قواعد . وقد قرأ فيما بعد
في أحد كتب التراجم وهو كتاب
" شذرات الذهب " لأبي الفلاح الحنبلي
كيف تعلم الشيخ أحمد الدجاني -
وكان من الصوفية وقد توفي سنة
٩٦٩ هـ - النحو " .. كان الشيخ
أحمد لا يعرف النحو فبينما هو في
خلوته بالأقصى إذ كوشف بروحانية
النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال له

عنه . ولهذه التجربة حديثها الخاص بها .

تأكدت لدى المدرس الصغير أهمية الالتزام بالفصحى أثناء قيامه بعمله كمعلم حين انتقل في العام التالي إلى العمل بثانوية أريحا الأهلية ببلدة أريحا بين حلب واللاذقية . فقد وجد نفسه أمام لهجة جديدة عليه . ولا حاجة به إلى خوض تجربة الحديث بها ما دام قد أنس إلى الحديث باللغة الفصحى . وزاد إقباله خلال السنوات الثلاث التي أمضاها في أريحا على القراءة فطاف بين كتب مكتبة المدرسة يقرأ بنهم التراث والحديث والمترجم عن اللغات الأخرى . كما قَوِيَ اهتمامه بالدين فباشّر في حفظه أجزاء من القرآن الكريم . ونما لديه أيضا الاهتمام بالعمل العام فبدأ يشارك في النشاط السياسي ويلقي الخطب فالمحاضرات . وهكذا بدأ يتحدث بالفصحى خارج حجرة الدرس ويستخدمها في حديثه اليومي .

أيا أحمد تعلم النحو، قال: فقلت له يا رسول الله علّمني، فألقى عليّ شيئا من أصول العربية ثم انصرف ، قال فلما ولى لحقته إلى باب الخلوة فقلت : الصلاة والسلام عليك يا رسول الله وضمت اللام من رسول . فعاد إلى وقال لي أما علمتك النحو أن لا تلحن. قل يا رسول الله بفتح اللام . قال فاشتغلت بالنحو وفتح الله عليّ فيه " .

بدأ لسان صاحبنا ينطلق بالفصحى في تلك السنة الدراسية خاصة بعد أن تطوع لتدريس مادة الدين حين لم يجد مدير المدرسة مدرسا يتحمّس لتدريسها. فقد حرص على أن يُحضّر المادة تحضيراً جيداً ويحفظ الآيات القرآنية المقررة . وخاض بتدريسه هذه المادة تجربة غنية أفاد منها الكثير على صعيد التعامل مع اختلاف المذاهب وخرج منها بفهم أعمق لروح الدين ورفضٍ للتعصب والجمود ومعرفةٍ صحيحةٍ للمذهب العلوي بدّدت عنه كثيرا من الأخطاء الشائعة التي سمعها تتردد

انتقل صاحبنا للإقامة في دمشق بغية الجمع بين العمل ومتابعة دراسته الجامعية وذلك بعد أن استقر رأيه على دخول كلية الآداب والتخصص في دراسة التاريخ ، حين تعذر عليه دخول كلية العلوم أو كلية الهندسة لأنهما تتطلبان التفرغ الكامل. وعمل مدرسا في ثانوية حيفا للبنات وثانوية فلسطين للبنين وهما من مدارس وكالة الغوث التي يتلقى العلم فيها أبناء فلسطين .

كانت عادة التحدث بالفصحى قد تمكنت منه . وقد تابع تدريسه للرياضيات ثم لمادة الديانة ووجد أن الفصحى تسعفه في استخدام التعبيرات بدقة . وأنا أذكر كيف تطوّر لتدريس مادة الديانة حين علم من مديرة المدرسة بأن مدرسة اللغة العربية طلبت من طالبات السنة الأولى الإعدادية أن يقفوا عن الفصول الأولى من الكتاب المقرر التي تبحث في الطهارة " ويدبسونها " — أي يغلقون صفحاتها بالدبابيس — لأنها

تتحدث عن البلوغ والمسائل المتعلقة بالجنس . وذهب صاحبنا يومها بعد أن اتفق مع زميلته إلى المفتش وعرض عليه استعداداه فكان أن عهد إليه بتدريس الدين . وقد أقبل على شرح الكتاب المقرر من أوله ولاحظ أن استخدامه الفصحى في الشرح مكّنه من تناول أي موضوع بجديّة ووضوح، وأثمر دوما تجاوب طالباته وطلابه معه وانجذابهم إلى درسه . وأنا أذكر كيف استفسرت إحدى الطالبات عن معنى آية الصوم "أجلّ لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم .." ربما بقصد اختباره وإحراجة، وربما عن حسن نية . فرد عليها بشرح وافٍ لأسباب نزول الآية ولمعاني مفرداتها ومعناها الإجمالي ، والصف بمجموعه مشدود إليه . وقد أتاح له تدريس مادة الديانة فرصة توجيه طلابه والقيام بتجربة غنية في مجال تربية الشباب وتعريفه بحقائق الحياة وتثقيفه جنسيا ، ولا مجال هنا لشرحها وإنما أشير إلى دور اللغة الفصحى في إنجاحها .

وبالفائدة التي عادت عليه من تلك الدروس . ويكفي للتدليل على عظم هذه الفائدة ملاحظة التقدم الذي أحرزه في قراءة النصوص . وأنا أذكر كيف احمرّ وجهه خجلاً في الجلسة الأولى حين وصله الدور وقرأ صفحة من سيرة ابن هشام فأخطأ - وهو الذي يعمل في التدريس - عدة أخطاء . ولكنه استطاع بعد فترة أن يقرأ صفحات دون أن يلحن مرة .

كذلك ساهم في تمكنه من الفصحى خلال تلك السنوات متابعه الانشغال بالعمل العام ، وكانت سورية تمر بفترة دقيقة . وقد أقبل على العمل السياسي واندفع فيه وازدحمت أوقاته بالقراءة والحوار ، وبرز كموجه سياسي يتقن الدعوة لأفكاره بين طلابه وزملائه من الطلاب الجامعيين . وشهدت تلك الفترة أيضاً محاولته الأولى في كتابه المقالات الفكرية . وكان يقرأ بشغف المجلات الأدبية ويتابع باهتمام المعارك الفكرية فيها .

ويبدو أنّها خلّفت أثراً ملموساً بين التلاميذ . وقد أخذت فكرة عن هذا الأثر حين التقيت أثناء حضوري اجتماعاً في أبي ظبي بأديب شاب لامع في مجال الإذاعة مع آخرين في حفل رسمي، فإذا به يتحدث للحاضرين كيف شدّه إلى عشق اللغة العربية والتحول إلى الأدب مدرّسه الشاب الذي كان يُدرس الدين في مدرسة فلسطين الثانوية بدمشق ، ولا يتحدث إلا باللغة الفصحى . وقد جذبته الفصحى فداوم - وهو النصراني - على حضور دروس الدين الإسلامي واتصل منذ ذلك الحين بالأدب .

ثلاث سنوات أمضاها صاحبنا في دمشق تمكنت خلالها الفصحى منه وتمكن هو منها . وقد ساهم في تمكنه منها إقباله في تلك الفترة على الجلوس إلى شيخ عالم جليل مع مجموعة من أصدقائه مرتين كل أسبوع لقراءة القرآن وسيرة ابن هشام وبعض كتب الفقه على يديه . وأنا أذكر كيف شعر صاحبنا بروعة دراسة اللغة سماعاً

وقد نشر آنذاك مقالته الأولى في مجلة الآداب البيروتية . ووجد رغبة في معالجة الكتابة منذ أن أقبل على القراءة وهو في الثالثة عشرة من عمره وشعر بحاجته إلى تسجيل بعض ما يجيش في نفسه من مشاعر أو في رأسه من أفكار .

ولقد ظهرت آثار تمسكه بالفصحى في دراسته الجامعية بأن حقق تفوقا ملحوظا فيها وعلى الخصوص في عرض أبحاثه ، وعند دخول الامتحان الشفوي . وبالطبع فإن الفضل في هذا التفوق يعود في المقام الأول للخبرة التي اكتسبها من عمله كمعلم .

كان في الثانية والعشرين حين أنهى دراسته الجامعية وحصل على إجازة في الآداب " قسم التاريخ " . وقد اتجه إلى الانضمام لوالديه في طرابلس الغرب فعمل هناك مدرسا للتاريخ في معهد للمعلمين ولم يلتفت كثيرا إلى تغير اللهجة عليه لأن الفصحى كانت قد تمكنت منه

فأصبحت وسيلته في التعبير ، اللهم إلا من زاوية اهتمام نما عنده يدفعه إلى التأمل في هذه اللهجات والبحث عن أصل الألفاظ وكيفية تطورها ، وقد خرج من هذا التأمل وهذا البحث بنتائج تستحق حديثا خاصا . وتابع صاحبنا خلال تلك الفترة إقباله على القراءة ، وتمكنت منه عادة كتابة خواطره من وحي ما يعيشه في يومه حتى التزم بالكتابة الصحفية والتأليف . كما تابع بهمة العمل العام وانتظمت محاضراته في السياسة والأدب والفكر . واقرنت صورته بالفصحى فلم يعد الناس يذكرونه إلا بهما ولم يعد هو يأنس إلا لهما .

حين أراجع ما كتبت في الإجابة عن سؤال " لماذا ؟ " أجد أنني كعادتني اتبعت المنهج التاريخي في حديثي . وقد أوضحت أصل الحكاية ، وأظنني عللت وسببت . ولكن يبقى في مجال التعليل والتسبيب أن أذكر حديثا — يخطر الآن على بالي — جرى بيني وبين أخي إبراهيم الغويل

في طرابلس إيان تلك الفترة . كنا في انطلاقة الشباب نعيش حياتنا عريضة ونجاهد لنجسد ما نؤمن به من أفكار ومعنا ثالثا المرحوم علي وريث صاحب " البلاغ " . وكان إبراهيم مطلقا لحيته على غير المألوف في الخمسينيات وأوائل الستينيات.. فسألته يومها لأول مرة .. وكان قد مضى على صداقتنا سنوات .. عن قصة إطلاقه للحيته ، فقص علي القصة، ذكرا أنه لم يحلقها منذ أن نبتت في وجهه ومبينا أنه حين يفكر في السبب يجد أن إطلاقها كان يعلن "تميزا" عن واقع محيط به لا يرضى عن كثير مما فيه ، " وإعلانا لهوية " جديدة ولأفكار يبشر بها. ثم أشار بدوره إلى حديثي بالفصحى ولاحظ تشابها في الحالين. وقد عدت إلى نفسي يومها فلم أستبعد منطقته في التعليل ورأيت أن الظروف التي أحاطت بي تفاعلت مع أفكار فتى حالم يؤمن بأن له دورا في التقدم بأمته، ويعتقد أن الحياة مسؤولية والتزام ، ويبشر بمستقبل أفضل .

كيف يستقبل الناس على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم ومشاربهم الحديث بالفصحى ؟ ما هي ردود أفعالهم عليه ؟ وإلى أي مدى ينسجمون معه ؟

إجابتي هي من واقع تجربتي التي تمتد على مدى ربع قرن وإذا أردت أن أصف التجربة بكلمة أو كلمتين أقول إنها " إيجابية واعدة " . إيجابية لأن استقبال الناس لها - على اختلافهم - تشير في الغالب إلى انسجامهم معها . واعدة لأن تجاوب الناس معها سريع .

الملاحظة الأولى التي ألاحظها حين أتحدث بالفصحى مع أناس أقابلهم للمرة الأولى في السوق أو في الشارع متاولا أمور الحياة اليومية هي أنهم يصابون للوهلة الأولى بالدهشة والاستغراب . ولكنهم ما أسرع ما يألفون " النغمة " .

ملاحظتي الثانية هي أن ردود فعلهم في الغالب - تكون بإجابتي " بالفصحى " . فإن كانوا من العامة

الذين تلقوا قدرا بسيطاً من العلم استخدموا " الفصحى المدرسية " وإن كانوا من المثقفين انطلقوا في حوار فصيح يعطي الحديث طابعاً رفيعاً .
و حين يجري الحديث مع أميين يأتي الرد بالعامية مع إظهار فهمهم لما قلت وظهور ما ينبئ بسرورهم لسماع اللغة الفصحى . ولا يخلو الأمر من قلة نادرة تأخذ الأمر كله مأخذ الهزل متأثرة بالصورة المشوهة التي تقدمها بعض التمثيليات الإذاعية والتلفازية والأفلام السينمائية للحديث بالفصحى .
ولكن ما أسرع ما يتحول الأمر إلى الجد حين أتابع حديثي بتلقائية غير ملتفت إلى نعمة السخرية وكأنني لم أنتبه لها أو أشعر بها .

لقد استخدمت تعبير " الفصحى المدرسية " لأميزها عن " الفصحى " .
لأنني ألاحظ من تعليق الناس على حديثي وأحاديث آخرين يلتزمون بالفصحى أنهم يؤكدون سمة التلقائية وخاصة السلاسة في هذه الأحاديث .
ويشيرون إلى ما يسمونه اصطلاحاً

الحديث بالفصحى . وأنا أسلم بهذا التفريق ومرده فيما أعتقد أن التزام الحديث بالفصحى يكسب الحديث التلقائية والسلاسة بينما أسلوب تعليمها في مدارسنا والاقتصار عليها عند قراءة النصوص العربية ليس إلا هو الذي بذلك الاصطناع .

ملاحظتي الأخيرة هي أن جلّ الناس بعد أن يتجاوزوا وقع مفاجأة الحديث بالفصحى وبعد أن يظهروا ردود فعلهم الأولى عليه ما أسرع ما يألّفون هذا الحديث وينسجمون معه ومن هنا فإن موقف المتحدث بالفصحى وهو يصرف أمور حياته اليومية هو موقف قوي أهم ما فيه أنه قريب إلى قلوب الآخرين كما أنه أقدر على التعبير الدقيق، وهذه القدرة على التعبير الدقيق لا تمنع المتحدث بالفصحى أن يشعر أحياناً بحاجة إلى استخدام تعبير يشيع على ألسنة العامة. وقد درجت في مثل هذه الحالة على استخدامه بلا تردد أني وجدت بعد متابعة في المعاجم أن كثيراً من تعبيرات العامة

هي تعبيرات فصيحة في الأصل وقد وردت في القواميس . أما إذا كنت متأكدًا من بعد التعبير عن الفصحى فإني أمهد لاستخدامه بقول " كما يقول العامة "أو" كما يقال باللسان العامي " . ولقد فكرت في سر ألفة الناس للفصحى . وانسجامهم معها فرجحت أن السبب يعود إلى لغة القرآن الكريم الذي يستمعون إليه ويرددونه بخشوع . كما أنها لغة القراءة الجادة سواء في الصحف أو الكتب . وهي في الوقت نفسه لغة الحديث الرفيع الذي يستمعون إليه في الإذاعة أو في المحاضرات العامة أو في الخطب الرسمية أو في حوار الخاصة .

والآن وبعد هذا الحديث الذي طال عن الفصحى وقصتي معها لا بد لي كي أوفي هذه القصة وأكملها أن أقول إن تجربتي طرحت أمامي منذ فترة سؤالاً جذرياً هو " ما هي الفصحى وما هي العامية ؟ . وقد حاولت أن أجد الإجابة الوافية له .

وأذكر أنني طرحت السؤال أمام أخي إبراهيم في محاوراتنا التي كانت تتصل يوماً بعد يوم - إبان إقامتي - بطرابلس وتجوب بنا عوالم الفكر ، والحياة والكون ، فساعدتني تعليقاته ونظراته على تلمس طريقي في الإجابة . كما أذكر أنني طرحت السؤال على أخي الكبير الدكتور إسحاق موسى الحسيني في لقائنا الأخير بالقاهرة أثناء مشاركته في مؤتمر مجمع اللغة العربية . وخصصنا للإجابة عليه نصيباً من وقت الحوار الذي كنا نحرص عليه يومياً وتوفره لنا رفقة الطريق .

الفصاحة في المعاجم " البيان " واللفظ الفصيح " ما يدرك حسنه بالسمع " . وفصح الأعجمي " تكلم بالعربية فجادت لغته ولم يلحن " . ورجل فصيح " يحسن البيان ويميز جيد الكلام من رديئة " وكلام فصيح " يعين صاحبه على إجادة التعبير . و"الفصاحة " من أفصح اللين إذا ذهبت رغوته . ولقد قدر العرب منذ القديم

الفصاحة وميزوا بين اللغة العالية ولغة العامة ويبدو أن التفريق الواضح بين لغة فصحي ولغة عامية هو أمر حديث نسبياً يعود إلى القرن الماضي. ولقد ألحّ هذا الأمر مع ظهور اليقظة في خضمّ الحوار حول لغة التعبير وطريقة الكتابة .

وفي محاولتي أن أجد الإجابة الوافية للسؤال الذي طرحته تجربتي أمامي كنت أتتبع باهتمام لهجاتنا العامية. وكلما استوقفتني كلمة أهرع إلى المعجم بحثاً عنها .. وقد وجدت أن كثيراً من الكلمات المتداولة في هذه اللهجات كلمات فصيحة جاء ذكرها في المعاجم ولاحظت أن كسل لهجة اختارت كلمة بعينها فتداولتها . وفي الغالب طرأت على العديد من هذه الكلمات تغييرات بفعل الإبدال والإدغام ولا أريد هنا أن أسترسل في إيراد الأمثلة موجلاً ذلك لبحث أرجو أن أعكف على كتابته ، ولكن أكتفي بذكر تعبير " نبي وبدي " وكلاهما بمعنى الإرادة والرغبة . والأول يشيع

في بعض أقطارنا العربية بشمال أفريقيا بينما يشيع الآخر في بلاد الشام. إن أصلهما هو "تبغي" و"بودي" وكلاهما في الأصل فصيح كما نرى ، وقد تعرضنا للتغيير ، وتتبعنا أيضاً طريقة اللفظ في اللهجات فقادني ذلك إلى البحث عما كتب عن لهجات العرب القديمة . ووضح لي أن لهجاتنا الحالية إنما هي استمرار لها . وتأكد لي أنه لولا اعتمادنا نحن العرب لغة واحدة في الكتابة لتحولت هذه اللهجات إلى لغات ولحدثت للغة العربية ما حدث لغيرها من اللغات القديمة التي تفرق كل منها لعدة لغات. إن هذه اللغة الواحدة هي لغة القرآن الكريم ، وهي قبل ذلك لهجة قريش البليغة وكانت قريش كما قال أبو نصر الفارابي " أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ ، أسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عن النفس " ويبدو لي أن التجاوب الذي يلاقيه حديثنا بالفصحى موروث منذ أن

برزت لهجة قریش بين العرب قبل الإسلام ومنذ أن اختار الله اللسان العربي المبين لينزل به القرآن الكريم. ولقد استوقفني في مستهل تجربتي ما عبر به أبو الريحان البيروني عن مشاعره تجاه اللغة العربية في كتابه "الصيدنة" ديننا والدولة عريبان، والدين والدولة توأمان يرفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية. و"الهجو بالعربية أحب إلي من المدح بالفارسية.."

إن هذه المنزلة النفسية وهذه المزية العملية للفصحى تجعل المستقبل لها. ومن المؤكد أن البون القائم بين العامية ولهجاتها وبين الفصحى يمكن أن يضيق تدريجياً مع انتشار التعليم واعتماد سياسة إعلامية ثقافية صحيحة في الإذاعة والصحافة ووسائل الإعلام الأخرى.

أخشى أن يسوقني حديثي عن قصتي مع الفصحى إلى الاستطراد لمعالجة موضوعات كثيرة تتصل

بواقع الفصحى ومستقبلها. وقد وجدت في نفسي وأنا أكتب ميلاً إلى الحديث عن الفصحى والتجزئة السياسية، والفصحى والقيادة السياسية، والفصحى والتقدم العلمي. والفصحى والدور الإنساني لأمتنا. كما وجدت نفسي مهتماً بمحاولة الإجابة عن سؤال كيف؟ بشأن تضيق البون القائم بين العامية والفصحى. وحين أخذت استراحة من الكتابة انعطفت إلى مكتبتي لأراجع البحث القيم الذي كتبه عن مجال اللغة العربية عبد الكريم اليافي في كتابه "دراسات فنية في الأدب العربي". ثم عاودت قراءة البحث القيم الذي كتبه الدكتور حسام الخطيب عن عموم اللغة العربية في عصرنا وطرح فيه ملامح المشكلة اللغوية في البلاد العربية، وذلك في كتابه "ملاح في الأدب والثقافة واللغة" وقد تفضل بإهدائه لي عند لقائنا الأخير في غمرة حديث طويل عن مستقبل الفصحى. ومررت أيضاً بكتاب جرجي زيدان "الفلسفة اللغوية

إن هذه المنزلة النفسية وهذه المزية العملية للفصحى تجعل المستقبل لها. ومن المؤكد أن البون القائم بين العامية ولهجاتها وبين الفصحى يمكن أن يضيق تدريجياً مع انتشار التعليم واعتماد سياسة إعلامية ثقافية صحيحة في الإذاعة والصحافة ووسائل الإعلام الأخرى.

أخشى أن يسوقني حديثي عن قصتي مع الفصحى إلى الاستطراد لمعالجة موضوعات كثيرة تتصل

_____ للدكتور أحمد صدقي الدجاني _____

والألفاظ العربية " مستذكرا بعض ما
طرحه من قضايا .

إذاً فلأختم حديثي راجياً أن

أكون قد أجبت من خلال قصتي مع

الفصحى عن سؤالي لماذا ؟ ومتى ؟ .

أحمد صدقي الدجاني

عضو المجمع المراسل من فلسطين